
أحمد خليل جمعة
نساء من عصر التابعين
حفصة بنت سيرين
www.dawahmemo.com
دار ابن كثير
دمشق - بيروت

(٨)

حفصة بنت سيرين

* قال إياس بن معاوية :

ما أدركت أحداً أفضّله على حفصة .

* وقال يحيى بن معين :

حفصة بنت سيرين ثقة حُجّة .

حَفْصَةُ بِنْتُ سِيْرِينَ

المِيْرَاثُ الحَقِيْقِيُّ :

* ورثتْ هذه المرأة عن أسرتها حبَّ العلم ، والدَّأب في القراءة ، فقد نشأت في بيت تقىً وعلم ، وورع وزهد ، وتخرّجت في مدرسة الصَّحابة ، تلك المدرسة التي أثرتِ الدّنيا بأعلام حلّقوا في سماء المكرمات ، وزيّنوا جِيْدَ الدّهر بعلومهم ، وأسسوا الحضارة العلمية بأعمالهم التي ما تزال حيّة تخفقُ بيننا حتى الآن .

* وقد شهد لهذه التّابعية بالفضل ، أهل الفضل وأولو المعرفة ، وأثنوا عليها ثناءً عَطِراً حقيقياً ، رفعها مكاناً عليّاً بين نسوة عصرها ، وأبَانَ فضلها ، وكشف عن مكانتها الكبيرة في العلم ، فهذا إياس بن معاوية التّابعي المشهور يقول عنها : ما أدركت أحداً أفضّلهُ عليها ـ يعني من

---

(١) إياسُ بنُ معاوية بن قرة المزنيّ ، أبو واثلة ، البصريّ ، القاضي المشهور ، وأحد أعاجيب الدهر في الفطنة والذكاء . ولد سنة (٤٦ هـ) ومما قاله عنه الجاحظ : كان إياس صادق الحدس ، عجيب الفراسة ، ملهماً ، وجيهاً عند الخلفاء ، توفي سنة (١٢٢ هـ) ، وله أخبار مشهورة ، وكان مضرب المثل في الذكاء ـ رحمه الله تعالى ـ . (تقريب التهذيب : ٨٧/١) ، و (الأعلام : ٣٣٠/٢) .

التّابعين ـ وحسبك بشهادة إياس لها ، لتجعلها بذلك سيّدة التّابعيات في زمانها دون منازع .

* ولم يكن في عصرها مَنْ يستطيع أنْ يجاريها في الفقْهِ أو العلم ، حتى أضحتْ علماً يشار إليها بالبنان ، إنّها حفصةُ بنتُ سيرين الفقيهة الأنصاريّة البصريّة ، أمّ الهذيل(١) ، أخت التّابعي الشّهير محمّد بن سيرين ـ رحمه الله تعالى ـ .

* * *

بِدَايَةٌ مُوَفَّقَةٌ :

* قبل أنْ ندخلَ الأجواءَ العطرةَ لحفصةَ بنتِ سيرين ، تعالوا نقف وقفةً لطيفةً نتعرف خلالها على تلك البدايةِ الكريمة التي أحاطت بها .

* كان أبوها سيرين مولىً لسيدنا أنس بن مالك الأنصاري ـ رضي الله عنه ـ وقد اشتراهُ مِنْ سيدنا خالد بن الوليد ـ رضي الله عنه ـ وكان قد أسره في « عين التّمر » في باديةِ العراق قرب الأنبار ، إلا أنّ أنساً ـ رضي الله عنه ـ كاتَبَ سيرين على شيءٍ من المال ، فأدّى كتابته وأصبح حراً .

* ثم ما لبثَ سيرين أنْ تزوّجَ من امرأة يقال لها « صفيّة » كانت مولاةً لسيدنا أبي بكر الصّدّيق ـ رضي الله عنه ـ ، وكانت امرأة فاضلة

---

(١) الطبقات (٤٨٤/٨) ، وسير أعلام النبلاء (٥٠٧/٤) ، وتهذيب التهذيب (٥٠٩/١٢) .

ميمونة ، فقد أكرمها الله عزَّ وجلَّ بكرامةٍ نادرة إذْ طيّبها ثلاثة منْ أزواج النّبيِّ ﷺ ، فدعَوْنَ لها ، وحضر إملاكها ثمانية عشر بدريّاً فيهم سيدنا أُبَيُّ بن كعب ـ رضي الله عنه ـ يدعو وهم يؤمِّنون[1] .

* وقد حدَّثت حفصة أنَّ والدها سيرين عَرسَ بالمدينة فأَدَمَ ، فدعا النّاس سبعاً ، وكان فيمن دعا أُبَيّ بن كعب ، فجاء وهو صائم فدعا لهم بخيرٍ وانصرف[2] .

* وقد أثمر هذا الزَّواج الميمون ثماراً طيّبة عندما رُزِق هذان الزَّوجان حفصة[3] ، ومن وراءِ حفصةَ محمّد ويحيى وكَريمة وأمّ سُليم ، ويبدو أنَّ سيرين قد تزوّج بغير صفيّة أيضاً فوُلدَ له عدة أولاد وهم : مَعْبد وأنس وعَمْرة وسودة بنو سيرين ، وكلّهم ـ كما قال ابن كثير ـ : تابعيّون ثقات أجلّاء[4] . وقال الإمام النّوويُّ ـ رحمه الله ـ عنهم : وأولاد سيرين كلُّهم رواة ثقات .

* هذا وقد نشأتْ حفصة في هذا البيت الفاضل ، ويكفيها من الفخر أن يكون مولى أسرتها كلّها الصّحابي الجليل أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ ، فقد صُنعت على عينه ، وتخرّجت في مدارس عدد من أجلّاء الصّحابة والصّحابيات ، وفي مقدمتهم : عائشةُ أمُّ المؤمنين ، وأمُّ عطيّة الأنصارية ـ رضي الله عنهما ـ .

---

(١) الطبقات (١٩٣/٧) ، وتهذيب الأسماء واللغات (٨٣/١) .
(٢) المعرفة والتاريخ (٢٧/٣) .
(٣) كان مولد حفصة في خلافة سيدنا عثمان حوالي سنة (٣١ هـ) .
(٤) البداية والنهاية (٢٧٩/٩) .

* كما تابعت حفصة تحصيلها العلمي الحديثيّ في مدرسة التّابعين ، فروتْ عن أخيها يحيى ، وعن أبي العالية رفيع بن مهران البصريّ ، وهو إمام مقرىءٌ حافظ مُفسّر ، وأحد أعلام التّابعين وفضلائهم وأكابرهم .

* ولم تقتصر حفصة في روايتها على أعلام التابعين من الرِّجال فحسب ، بل روت عن خَيْرَة أم الحسن البصريّ[1] ـ رحمها الله .

وروى عن حفصةَ عددٌ من أفاضل التّابعينَ ، وجِلّةِ العلماء منهم : أخوها محمّد بن سيرين ، وقتادةَ ، وأيّوب ، وابن عون ، وهشام بن حسان وغيرهم كثير .

* وحديثها مذكورٌ في الصّحاح والسُّنن والمسانيد ، ومن مروياتها الحديث المشهور في غَسْلِ الميّت الذي روته عن أمّ عطية الأنصارية[2] ـ رضي الله عنها ـ قالت :

لما ماتتْ زينب بنت رسول الله ﷺ قال : « اغسلنها وتراً ، ثلاثاً ، أو خمساً ؛ واجعلن في الآخرة كافوراً أو شيئاً من كافور ، فإذا غَسَلْتُنَّها فأعلمنني » فلما غسلناها أعطانا حقوه ـ إزاره ـ وقال : « أشْعِرْنها إيّاه[3] » .

* * *

(١) اقرأ سيرة خيرة أمّ الحسن البصريّ في هذا الكتاب ؛ ففيه أخبار سارّة .
(٢) اقرأ سيرة الصّحابية الجليلة أم عطيّة الأنصارية في كتابنا « نساء من عصر النّبوة » الجزء الأول .
(٣) أخرجه ابن سعد في الطّبقات (٨/٣٤) ، ومسلم (٩٣٩) ، وللحديث أصل في صحيح البخاريّ برقم (١٦٧) و (١٢٥٥) و (١٢٥٦) و (١٢٦٣) ، والتّرمذي (٩٩٠) ، وكلّه من طريق حفصة بنت سيرين ـ رحمها الله ـ . =

اسألوا حفْصَةَ :

* كان محمّدُ بنُ سيرين ـ رحمه الله ـ إذا أشكل عليه شيءٌ من القرآن قال : اذهبوا فَسَلوا حفصةَ كيف تقرأ .

* هذه شهادة زاكيةٌ تشهد لحفصةَ بعلو الكعب في معرفة علوم القرآن ، وتشهد لها أيضاً بجَوْدَةِ فهم وحفظ كتاب الله عزَّ وجلَّ ؛ وليس غريباً أنْ يذهبَ النّاس لسؤال حفصةَ عمّا يصادفهم منْ مسائلَ ، فقد قرأتِ القرآنَ وهي ابنة اثنتي عشرة سنة ، وعاشت في رحابه آناء الليلِ وأطراف النّهار ، وتفيأت بظلاله في الغدو والآصال .

* وكانت ـ رحمها الله ـ موصولة القلب بالله عزَّ وجلَّ دائماً ، وكان وِرْدُها القرآن ، إذْ لم يكن يتبيّنُ الخيط الأسود من الخيط الأبيض من الفجر في كلّ ليلة ، إلا وقد قرأتْ نصفَ القرآن الكريم ، ولم تتركْ هذا الورد المبارك إلى آخر حياتها .

* أمّا فهمها لآياتِ الذّكْرِ الحكيم ، فكان شيئاً رائعاً يدلُّ على مدى سعة علمها وفقهها ، وقد أوردَ ابنُ الجوزيّ في « صفةِ الصَّفوة » أنّ

= والحديث هذا مرويٌّ في الصّحاح والسّنن كلّها .

ومن الفائدة هنا أنْ نشيرَ إلى ما ورد في الصّحيح أنّ رسول الله ﷺ قال : « اغسلنها وتراً : ثلاثاً أو خمساً أو سبعاً ، أو أكثر من ذلك إن رأيتن » .

قال ابن المنذر : إنّما فوّضَ الرأي إلى النّسوة بالشّرط المذكور وهو الإيثار ، وإذا كان الميت امرأة ندب نقض شعرها وغُسل ، وأُعيد تضفيره وأرسل خلفها ، ففي حديث أم عطيّة : أنهن جعلن رأس ابنة النّبي ﷺ ثلاثة قرون ضفائر ـ نقضْنَه وجعلْنَه ثلاثة قرون . وفي صحيح مسلم قالت : فضفرنا شعرها ثلاثة قرون : قرنيها وناصيتها . وفي صحيح ابن حبان الأمر بتضفيرها من قوله ﷺ : « واجعلن لها ثلاثة قرون » .

عاصمَ الأصول[1] قال :

كنّا ندخل على حفصةَ بنتِ سيرين ، وقد جَعَلَتِ الجلباب هكذا ، وتنقّبت به ، فنقول لها : رحمك الله ، قال الله : ﴿ والقواعدُ من النّساء اللاتي لا يرجونَ نكاحاً فليس عليهن أنْ يضعْنَ ثيابهن غير متبرّجاتٍ بزينة ... ﴾ [النور : ٦٠] ـ وهو الجلباب ـ قال عاصم : فكانت تقول لنا : أيّ شيء بعد ذلك ؟ فنقول : ﴿ وأنْ يستعففن خيرٌ لهن ﴾ ثم تقول : إثبات الجلباب[2] .

* * *

عِبَادَتُهَا وصَلاتُهَا :

* كانت حفصة ـ رحمها الله ـ من سروات النّساء عبادة ودِيْناً وعفّةً وكرماً وطيباً ، وكان لها خلوات تقيمُ فيها الليالي الكثيرة للتّعبد ، ولذا فقد كان لها في مجال العبادة حظٌّ عظيمٌ وبلغتْ مبلغاً رائعاً لم يبلغه إلا كبار الزُّهاد في عصرها .

---

(١) هو عاصم بن سليمان الأحول البصري ، أبو عبد الرحمن : من حفاظ الحديث ، ثقة ، تولى بعض الأعمال ، فكان بالكوفة على الحسبة ، وكان قاضياً بالمدائن ، واشتهر بالزهد والعبادة .

(٢) « الجلباب » : قيل هو الملحفة ؛ قالت امرأة من هذيل ترثي قتيلاً :

تمشي النّسور إليه وهي لاهية ... مشي العذارى عليهن الجلابيب

وورد في القرآن الكريم قوله تعالى : ﴿ يدنين عليهن من جلابيبهن ﴾ [الأحزاب : ٥٩] ، وذكر ابنُ عبد البر في « الاستيعاب » أنَّ فاطمة بنت الوليد كانت تلبس الجلباب من الخزّ ثم تأتزر ، فقيل لها : أما يغنيك ـ أيّ الجلباب ـ عن الإزار ؟ فقالت : سمعتُ رسول الله ﷺ يأمر بالإزار .

* قال عنها مهديُّ بن ميمون : مكثتْ حفصةُ بنت سيرين ثلاثين سنة لا تخرج من مصلّاها إلا لقائلة ـ أو مقابلة ـ أو قضاء حاجة[1] .

* وأورد هشامُ بن حسان صورةً وضيئةً عن عبادتها فقال : كانت تدخل إلى مسجدها فتصلي فيه الظّهر والعصر والمغرب والعشاء والصّبح ؛ ثم لا تزال فيه حتى يرتفع النّهار ، وتركع ثم تخرج فيكون عند ذلك وضوؤها ونومها ، حتى إذا حضرتِ الصَّلاةُ عادت إلى مسجدها إلى مثلها[2] .

* ولم تتوقفْ ـ رحمها الله ـ في عبادتها عند هذا الحدّ فحسب ، بل كانت تطيلُ الوقوف في صلاتها تذرفُ الدّمع سخياً من خشية الله عزّ وجلّ ، وهذا مما لفتَ انتباه جاريةٍ لها سِنْديّةٍ قد اشترتها ، فقيل للجارية : كيف رأيتِ مولاتك حفصة ؟ قالتِ الجاريةُ : إنّها امرأةٌ صالحةٌ ، كأنّها أذنبتْ ذنباً عظيماً ، فهي تبكي الليل كلّه وتصلي .

* ولهذا فقد كانت حفصة ـ رحمها الله ـ تحضُّ على طاعة الله سبحانه في مرحلة الشّباب ، لأنّ في الشّباب قوة على الطّاعة ، وكثيراً ما كانت تخاطب الشّباب ـ من إناث وذكور ـ بقولها المأثور :

يا معشر الشّباب ، خذوا من أنفسكم وأنتم شباب ، فإنّي رأيتُ العملَ في الشّباب .

* وإلى جانب عبادة حفصةَ وصلاتها وصلاحها ، كانت واحدة ممن

---

(١) سير أعلام النبلاء (٤/٥٠٧) .
(٢) صفة الصّفوة (٤/٢١) .

سردن الصَّوم ، ومنذ أنْ عَقَلَتْ لم تفطر يوماً واحداً ، إلا العيدين وأيام التَّشريق ـ وهي الأيام التي يحرم صومها ـ ومما يدلُّ على صومها الدَّهر ما وردَ من أنَّ ابنَها الهذيل كان له ناقة حلوب ، وكان يبعث لها بحلْبةٍ بالغداة فتقول له : يا بنيّ إنَّك لتعلم أنّي لا أشربه ، أنا صائمة . فيقول : يا أماه ، إنَّ أطيبَ اللبن ما بات في ضروع الإبل ، اسقيه مَنْ شئتِ .

ولكنَّ حفصةَ تؤثر بذلك مرضاة الله عزَّ وجلَّ فتبعث باللبن إلى الفقراء .

* * *

حَفْصَةُ في مِيزَانِ العُلَمَاءِ :

* لقيَتْ حفصة بنت سيرين المكانة التي تستحقُّ عند كبار علماء الحديث وعند كبار التابعين وكبار المؤرخين ، قال عنها إمامُ الحديث في زمانه يحيى بن معين ـ رحمه الله ـ : حفصةُ بنت سيرين ثقة حجَّةٌ .

وقال أحمدُ بن عبد الله : هي ثقةٌ . وذكرها ابن حبّان في الثّقات .

* وروي عن إياس بن معاوية قوله :

ما أدركتُ أحداً أفضّله على حفصةَ ؛ فذكروا له الحسن البَصْريّ وابنَ سيرين فقال : أمّا أنا فلا أفضّلُ عليها أحداً .

* ومما يتوافق مع رأي إياس ما رآه هشام بن حسان فقال :

قد رأيتُ الحسنَ وابنَ سيرين ، وما رأيتُ أحداً أرى أنّه أعقل مِنْ حفصةَ .

* أمّا عن مكانةِ حفصة في عالم النّساء التّابعيات ، فيفسره لنا قولُ ابن أبي داود : بأنّ سيّدات التّابعيات هن : حفصةُ بنت سيرين ، وعمرةُ بنت عبد الرحمن ، ويليها أمُّ الدّرداء الصُّغرى .

* وحَسْبُ حفصة من الفخر بأنّها تلميذة نجيبة لعائشةَ أمّ المؤمنين رضي الله عنها . ولا شكّ في أنّ حفصةَ بنت سيرين قد اقتبست كثيراً من أخلاق ومعارف أمّنا عائشةَ حتى بلغت هذه المنزلة الكبرى في عالم النّساء .

* * *

حَفْصَةُ وابْنُهَا الْهُذَيْل :

* كان الهذيل ابن حفصة برّاً بوالدته أشدَّ البر ، فكان يعملُ على راحتها ، وكلّ ما يدخل الرِّضا والسُّرور إلى نفسها ؛ ولحفصةَ وابنها الهذيل أخبار رائعة تشير إلى حُسْن تربيتها له وإلى برّه بها ، من ذلك ما حكاه هشام بن حسان قال :

كان الهذيلُ بن حفصة يجمعُ الحطب في الصّيف فيَقْشُرُه ، ويأخذ القصب فيَفْلِقه ؛ وكانت حفصة تشعر بوطأةِ البرد إذا جاء الشّتاء ، فكان ابنها يأتي بالكانون فيضعه خلفها وهي في مُصلّاها ، ثم يقعدُ فيوقد بذلك الحطب المقشّر وذلك القصب المفلّق وقوداً لا يؤذي دخانه ، حتى تشعر أمّه بالدّفء ، ويظلّ يفعل ذلك ما شاء الله برّاً بها واعترافاً بفضلها .

* إلا أنّ المنية وافتِ الهذيل ، وألهمها الله عزّ وجلّ السّلوان ، وقد

وصفت ذلك فقالت :

لما مات ــ ابني الهذيل ــ رزق الله عليه من الصَّبر ما شاء أنْ يرزق ، غير أنّي كنتُ أجدُ غصّــةً لا تذهب ، وبينما أنا ذات ليـلة أقرأ سورة النَّحل ، إذ أتيتُ على هذه الآية : ﴿ ولا تشتروا بعهد الله ثمناً قليلاً إنْ ما عند الله هو خير لكم إنْ كنتم تعلمون * ما عندكم ينفد وما عند الله باقٍ ولنجزينَّ الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾ [النحل : ٩٥ ، ٩٦] قالت : فأعدتُها فأذهبَ الله ما كنتُ أجدُ منْ مرارة فقده .

* * *

استِعْدادُها للمَوْتِ :

* لئن بلغتْ حفصــة الذّروة في مقــام العبادة والزّهد والنّسك والصّلاح ، لقد ضربتْ أروعَ الأمثلة في الاستعداد الدّائم للقاء الله عزَّ وجلَّ ، فقد ذكر الذين عرفوا أمورها وأحوالها أنّه كان كَفَنٌ قد أعدّته للموتِ ، فإذا حجّتْ وأحرمتْ لبسته لتذكّرَ نفسها أنّها تودُّ لقاءَ الله عزَّ وجلَّ في بيته الحرَم ، كما كانت تودُّ أنْ تذكّرَ مَنْ حولها أنَّ الموتَ أقربُ للإنسان من حبل الوريد ، فليغتنم المرءُ هذه السّاعات المباركات في بيت الله الحرام .

* وإذا فرغتْ حفصة من حجّها أو عمرتها ورجعتْ ؛ وضعتْ ذلك الكفن بالقربِ منها ، فإذا كانت العشر الأواخر من رمضانَ ، قامت مِنَ الليلِ فلبستْ ذلك الكفن ، ووقفت بين يدي الله عزَّ وجلَّ تتضرعُ إليه بين الخشية والرّجاء ، وتدعوه خوفاً وطمعاً أنْ يتقبّلَ منها أعمالها .

* ولم يكن ذِكْرُ الموت يفارقها طرفة عين ولا أقلَّ من ذلك ، بل كانت تودُّ لو تموتُ شهيدة بالطَّاعون ، فقد أخرج ابن سعد ـ رحمه الله ـ بسنده عن حفصة قالت : سألني أنس بن مالك بأيّ شيءٍ تحبّين أنْ تموتي ؟ .

قلتُ : بالطاعون .

قال : فإنه شهادة لكلّ مسلم(١) .

* وهذا يدلُّ على فِقْه حفصةَ ، فإنَّ الوفاةَ بالطَّاعون مكرمة يختصُّ بها الله مَنْ يشاء من عباده ، وقد روتْ أمُّ المؤمنين عائشة ـ رضي الله عنها ـ ما يشبه هذا فقالت : سألتُ رسول الله ﷺ عن الطَّاعون فأخبرني « أنّه عذابٌ يبعثه الله على مَنْ يشاء من عباده ، وأنَّ الله جَعَلَهُ رحمةً للمؤمنين(٢) » .

(١) الطبقات (٤٨٤/٨) وروى الشّيخان عن أنس مرفوعاً : « الطّاعون شهادة لكلّ مسلم » . و « الطّاعون » : هو الموت من الوَباء . وتُعتبر الشّهادة مثوبة مخصوصة من الله عزَّ وجلَّ ، وكرامة زائدة ، لأنَّ الشهادةَ تكفيرٌ للسيئات غير التّبعات ، فإنْ لم يكن للشّهيد أعمال صالحة فأمره متروك للمشيئة الإلهية . ويُعتبر المطعون ـ المصاب بالطّاعون ـ شهيداً بقيود :
١ ـ أنْ يمكث في بلده الذي هو فيه لا يخرج منه .
٢ ـ وأنْ يعلم ـ علم اليقين ـ أنّه لن يصيبه إلا ما كتبَ الله له .
٣ ـ وأنْ يصبرَ ـ صبراً جميلاً ـ دون انزعاج أو قلق .
قال رسول الله ﷺ : « ليس مِنْ عبْدٍ يقع الطّاعون فيمكث في بلده صابراً يعلم أنّه لن يصيبه إلا ما كتبه الله له إلا كان له مثل أجر الشّهيد » رواه البخاريّ (٥٧٣٤) في الطّب ، باب : أجر الصّابر على الطّاعون .

(٢) البخاري (١٩٢/١٠) في الطب ، وأحمد في المسند (٦٤/٦) .

* وعاشت حفصة قرابة سبعين سنة ، كانت فيها مثالاً حقيقياً للمرأة المسلمة في ورعها ودينها وصلاحها وتُقاها ، حتى أورثت الصالحين صلاحها ، وخلّدتها الأيام مع التّابعيات اللاتي أمْتعْن أسماع التّاريخ وبَهَرْن بصره .

* وفي سنة (١٠١ هـ)(١) اختار الله عزَّ وجلَّ إلى جواره الكريم سيّدة النّساء التّابعيات حفصة بنت سيرين ، وحضر جنازتها جَمْعٌ كريم من سادة تابعي البصرة ، وفي مقدمتهم الحسن البصريّ وأخوها محمّد بن سيرين(٢) .

* رحم الله حفصة وآل سيرين ، وجعلهم في علّيّين .

* * *

(١) تهذيب التهذيب (٤١٠/١٢) ، وقال الذهبي : توفيت بعد المئة رحمها الله .

(٢) المعرفة والتّاريخ للبسوي (٥٨/١) .